الاستشراق الفنى

فى مصر

خيال عربى وفردوس مفقود

خرج من عباءة المبالغة الرومانسية وعبر بصدق عن مرحلته الفنية

بقلم

د. محمد المهدى

• خرج من عباءة المبالغة الرومانسية، وعبر بصدق عن مرحلته الفنية

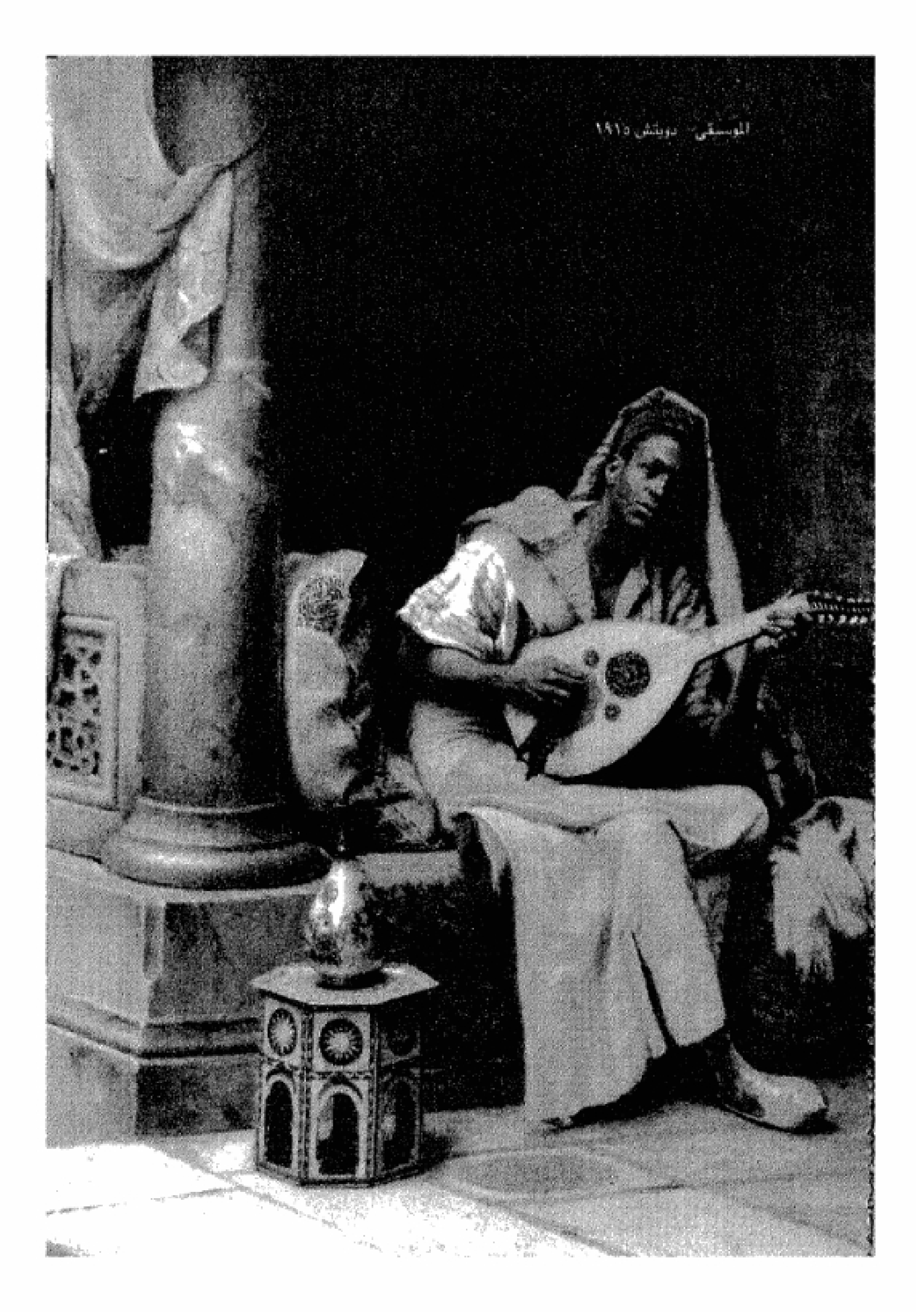
• ماشيرو.. بوهيمى فرنسى حضر مع السان سيمونيه وهام بحياة الريف المصرية

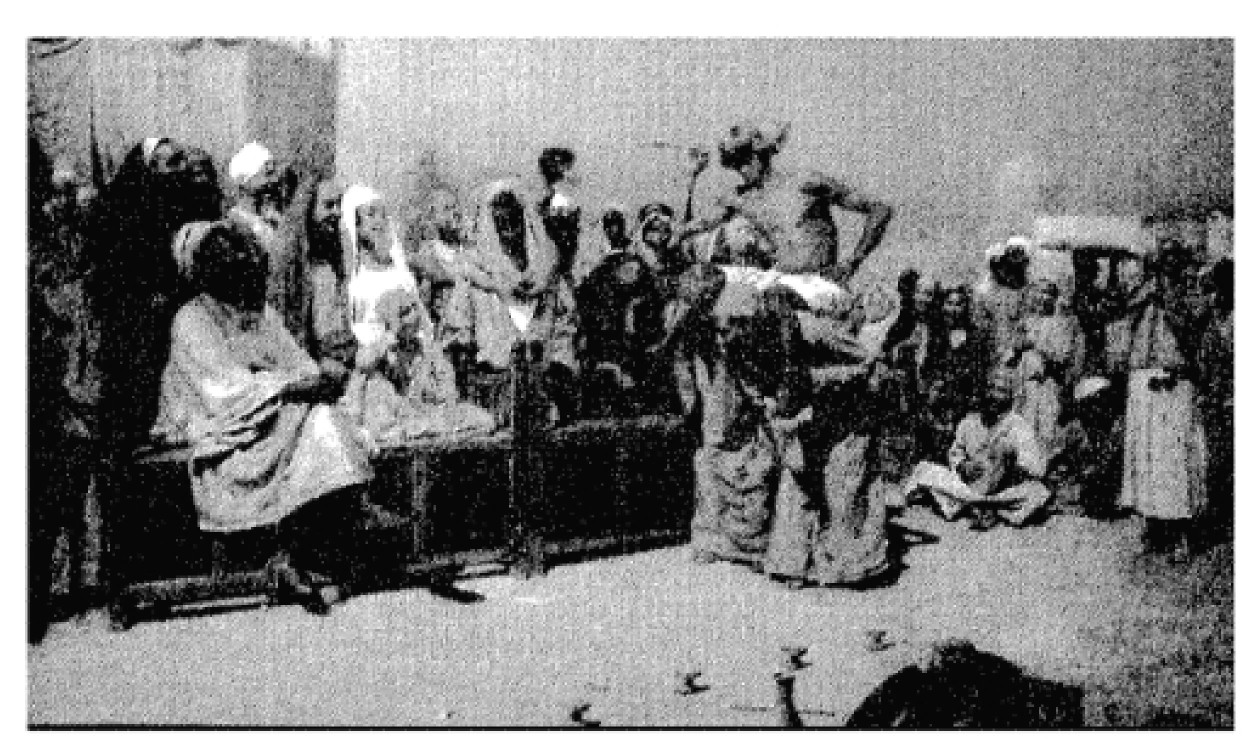
• بيلى : الارتباط مدهش بين سماء بنفسجية، ورمال ذهبية، وبحر تركوازى



ذو القعدة ١٤٢٢هـ - فبراير ٢٠٠٢م

صدر العدد الأخير من مجلة (فنون الشرق) Arts, D'orient التى تصدر فى باريس لتحدثنا عن عودة الاستشراق الفنى قويا الى صالات العرض، وعن ارتفاع أسعار لوحاته، ضمت القائمة ١٩٢ فنانا من جنسيات أوروبية وأمريكية متعددة، تناولت أعمالهم مناظر من (استانبول) و (مرمرة) و(البسفور) و(المغرب) و(الجزائر) و(تونس) و(مصر) و(لبنان) و(اسبانيا الأندلسية)، فضلا عن مناظر من الآثار اليونانية، ومن (غانا) و(نيجيريا) و(تشاد) .


الموسيقي - دويتش ١٩١٥



الحاوى فى القاهرة - فرانس كوسلر ١٨٩٨

الاستشراق الفنى (موضة) هذا الزمان، يتردد كثيرا هذا القول، وترديده لم يأت وليد المصادفة بعد فترة من الإهمال، لقد تصاعدت الموجة فى العقدين الأخيرين، وكان مظهرها إقامة العديد من المعارض، وكتابة النقاد، وحماس الرواد، أو الهواة .. وربح التجار.

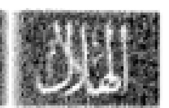
ومن يعرف القاهرة لابد أن يعرف ميدان السيدة زينب، تتفرع من الميدان حارة صغيرة تسمى حارة (السنارى أو مونج سابقا). فى داخلها مقر صغير للفنون يسمى بيت السنارى، و(مونج) هو أحد علماء الحملة الفرنسية التي جاءت إلى مصر عام ١٧٩٨ ورحلت عام ١٨٠١، وتستعاد الآن ذكرى نهايتها بين مرها وحلوها.

عن بيت السنارى يقول المؤرخ الكبير عبدالرحمن الجبرتى (وأفردوا لجماعة منهم - يقصد أعضاء الحملة - بيت إبراهيم كتخدا السنارى، وهم المصورون لكل شيء، ومنهم (أريجو).

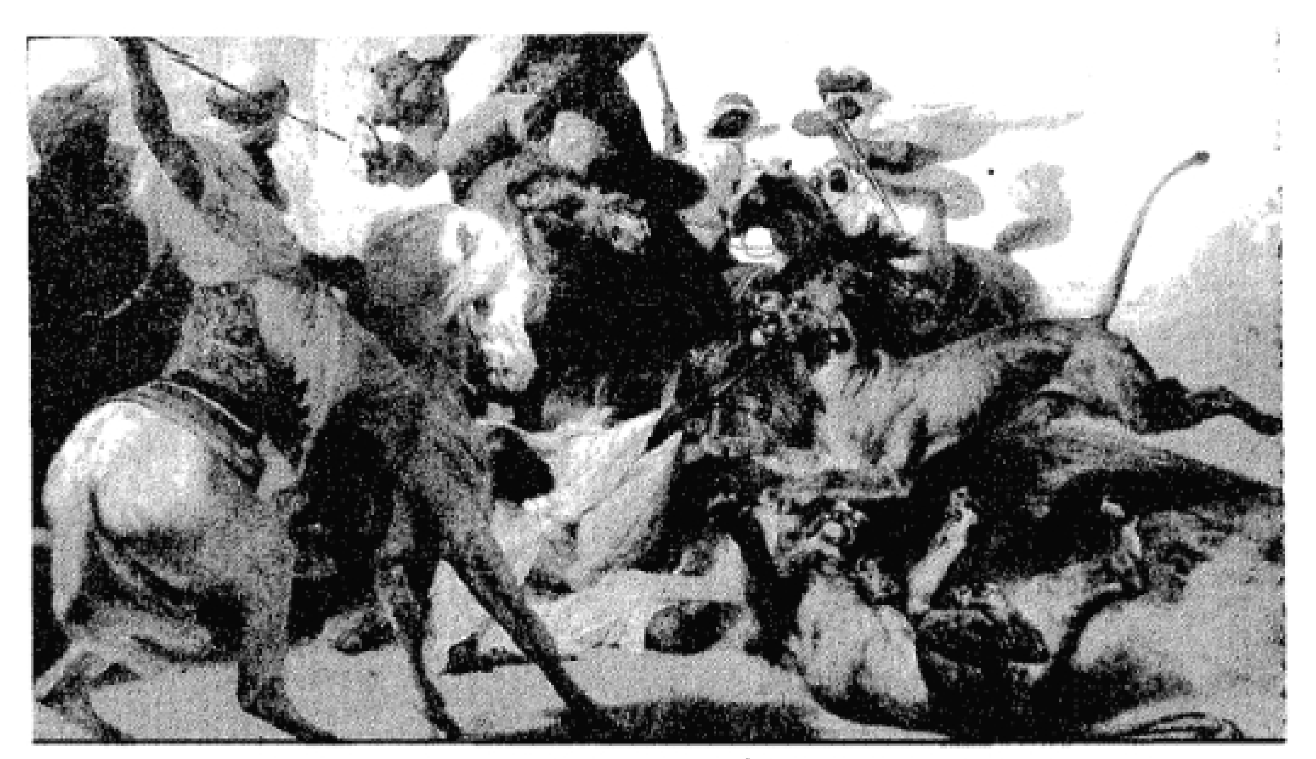
بداية الاستشراق الفني

وإذا كان (جرو Gros) الفرنسي يعد بلوحته (معركة ابى قير) عام ١٨٠٦ هو البادىء بالاستشراق الفنى الفرنسي فى مصر، فإن الفنان سولت Salt الإنجليزى يعد البادىء بالاستشراق الفنى الإنجليزى المرتبط بمصر، وإن كان الفارق بينهما كبيرا، فالفنان (جرو) كانت مكانته وإمكانياته الفنية أكثر بكثير من (سولت) الذى انشغل بالتنقيب عن الآثار المصرية.

ففى عام ١٨٠٦ زار (هنرى سولت) مصر ورسم عدة تخطيطات مبدئية للقاهرة، وطمعا فى الثروة سعى لأن يعين قنصلا فى مصر حتى تتاح له فرصة التنقيب عن الآثار بحرية خدمة لأحد أثرياء الإنجليزي وفى عام ١٨١٧م زار مصر بدعوة من حاكمها محمد على المهندس الفنان باسكال كوست Passcle,cost ليؤسس مصنعا للبارود والمفرقعات، وليشرف على إنشاء عديد من المرافق مع



ذو القعدة ١٤٢٢هـ - فبراير ٢٠٠٢م



صيد الأسود- هوارس فرنيه ١٨٢٦

مجموعة من المهندسين الفرنسيين وقضى في مصر عشرة أعوام، سجل خلالها عددا من اللوحات المحفورة والرسوم الملونة التي تميزت بدقة التفاصيل والألوان، وأنجز كتابه الضخم (العمارة الإسلامية أو آثار القاهرة ١٨٣٧/١٨٣٩).

دور مهم لإدوارد لين

وبين عامي ١٨٢٥ و ١٨٤٢ كانت زيارة وإقامة العالم الفنان الإنجليزي إدوارد وليم لين Edwardw.lane لمصر ثلاث مرات (١٨٢٥/١٨٣٣/١٨٤٢). توفر على دراسة أهل القاهرة، وسجل مشاهداته بالنص والرسم في مؤلفه الأول وصف مصر (غير كتاب الحملة الفرنسية) الذى لايزال مخطوطا لم ينشر، ثم كان مؤلفه الثاني الواسع الانتشار (المصريون المحدثون عاداتهم وتقاليدهم MAN-NERS,AND,CUSTOMS,OF ,MODERN EGYPTIANS .

ويضم ١٠٤ من رسومه تتراوح بين مجرد التسجيل، وبين الاستلهام الذكي من العمارة القاهرية والحياة اليومية. وكانت الرحلة الثالثة لإعداد كتابة (المعجم العربى) ARABIC,LEXICON وتوفى قبل إنجازه عام ١٨٧٦.

وإذا كان (لين) قد قصر دراساته على القاهرة وطبقتها البرجوازية، فإن الفنان (روبرت هاى) ROBERT, HAY قد فضل الحضارة المصرية القديمة، وكان (هاى) قد تولى أمر بعثة علمية جاءت إلى مصر في عام ١٨٢٨ إلى عام ١٨٣٦، أتقن أعضاؤها اللغة العربية وعاشوا مع (هاى) وزوجته في إحدى مقابر (طيبة)، ونشر (هاى)بعد عودته لبلده كتاب (صور من القاهرة) ILLUSTRATIONS, OF, CAIRO يحوى ما انتجه من لوحات خلال فترة إقامته في مصر.

وجمع الفنان والعالم الفرنسي بريس دافين PRESSE, DAVENNES بين عشقه للآثار المصرية، والآثار الإسلامية، ومظاهر الحياة اليومية في زمانه. جاء مصر عام ١٨٢٩ ليعمل

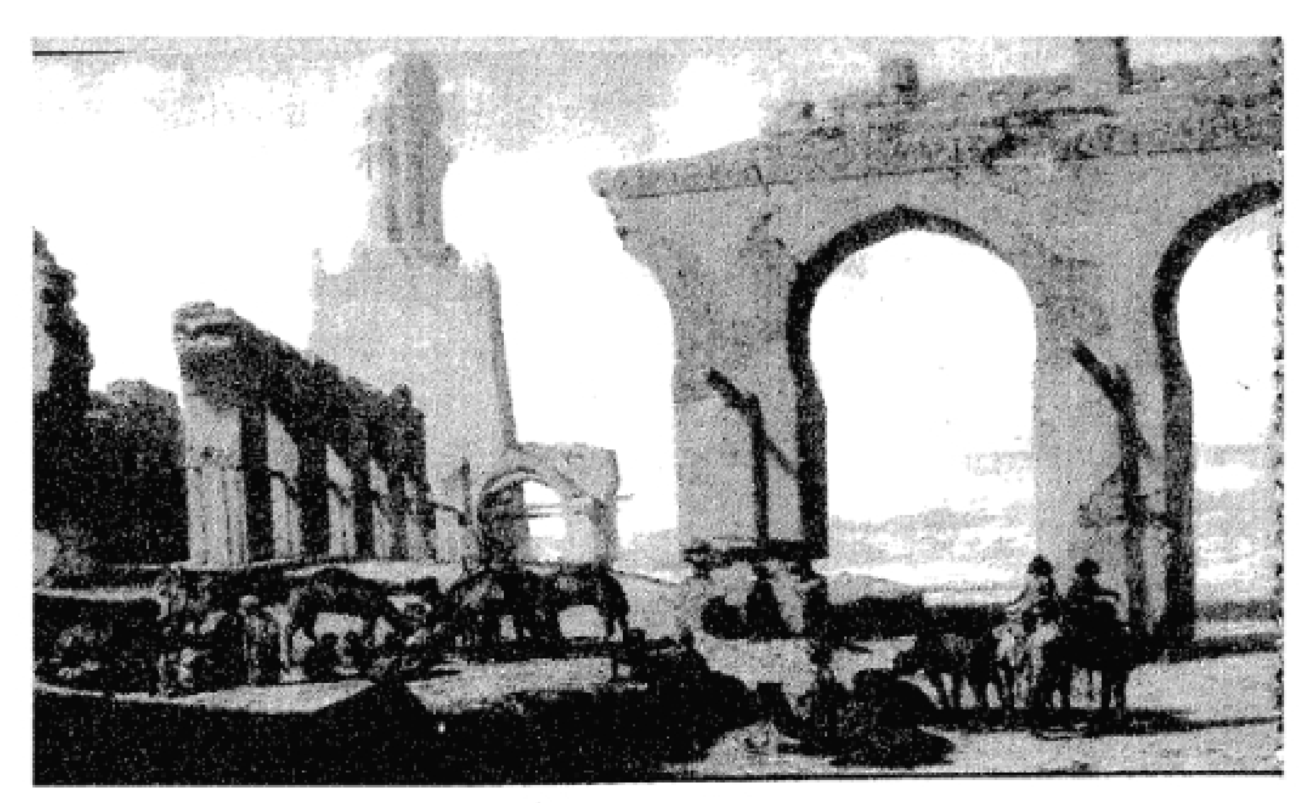

الفيوم – جان ليون جيروم

مهندسا معماريا، في خدمة ابراهيم باشا، ولكن تعلقه بالآثار والفنون والحياة الشعبية جعله يتمرد على سلطة محمد على مدافعا عن أهل البلد، وقد تعرض للمضايقة والمطاردة، ولكنه ظل متمسكا بموقفه، ثم استقال من عمله عام ١٨٣٧. أتقن العربية والعامية المصرية، لبس الزى لشعبى وتسمى باسم إدريس أفندى وتفرغ لابحاثه وفنونه. ويقول عنه الموسوعى الدكتور ثروت عكاشه: «وحتى ظهور بريس دافين كان الفن الفرعونى فى نظر المهتمين من الغربيين مجرد فن هندسى معمارى مشكل من خطوط وكتل ذات ابعاد ومقاييس وحسب، كما جاءت رسوم شامبليون وأعوانه برغم دقتها جامدة، غير أن هذا الفن مالبث حين مسه (دفين) بريشته الساحرة أن رف بالحياة النابضة، ودفء الجاذبية المشبوبة».

مستشرقون عشقوا مصر

ومن الفنانين المستشرقين الذين صحبوا البارونات أصحاب المشاريع فى مصر آنذاك الفنان الفرنسي (أدريان دوزا) ADRIEN,DAUZATS، ولد عام ١٨٠٤. وفى عام ١٨٢٨ شارك البارون (تيلور) لزمن طويل مشاريعه الفنية، وصحبه الى الشرق الأدنى فى مهمة رسمية، وهى وصوله لاتفاق مع محمد على لشحن مسلة الأقصر إلى فرنسا. وخلال ستة أشهر من ابريل حتى أكتوبر عام ١٨٣٠ تحددت ميول الفنان بعد اقامته فى القاهرة، وفى وادى النيل، وفى صحراء سيناء، اخذته على وجه الخصوص الرسوم التأثيرية فى (دير سانت كاترين)، وفى شهر يوليو رحل إلى فلسطين ثم سوريا حيث زار يافا، والقدس، ودمشق، والبتراء، وبعلبك. ونشر (دوزا) عام ١٨٣٩ وصفا لرحلته (خمسة عشر يوما فى سيناء) بالاشتراك مع (الكسندر ديما الأب).

وصحب الفنان الفرنسى بروسبيه ماريا (ولد عام ١٨١١) PROSPER,MARILHAT البارون (فون هيجل) فى رحلة الى الشرق الأدنى، رحلا فى أبريل عام ١٨٣١ إلى اليونان



مسجد الحاكم – بروسبيرماريا

ومنها إلى مصر. قام بروسبيه برحلة صحراوية الى سوريا ولبنان وفلسطين، وانتهى إلى (يافا) عائدا إلى مصر حيث انجز دراساته الفنية للعديد من القوافل، والمخيمات فى الفضاء الواسع الموحش بالصحراء، ولما كان قد أخذه عشق مصر فقد رفض الرحيل إلى الهند مع البارون. بدا له تشابها بين المنحوتات المصرية ووجوه السكان، وفى عام ١٨٢٢ رحل الي الإسكندرية حيث رسم العديد من البورتريهات كما رسم أيضا محمد علي، والأثرى الفنان بريس دافين ، ورحل إلى الاقصر لرصد ورسم ترحيل مسلة الاقصر إلى فرنسا.

السان سيمون في مصر

لم يكن الحضور لمصر اعجابا بحضارتها وفنونها مقصورا على الأفراد، فقد توجهت إليها بعض التيارات الثقافية الغربية، كان على رأسها فى الربع الأول من القرن ١٩ أعضاء الحركة (السان سيمونيه) SAINT, SIMONIENS فى فرنسا، كان سان سيمون ، الذى ولد عام ١٧٦٠، أول داعية فى الغرب لإنشاء علم الاجتماع الحديث، سعى الى أن تقوم السياسة على الأخلاق، نادى بتغيير الملكية الوراثية، وفرض سيطرة الدولة على وسائل الانتاج، وصاغ خليفته الأب (انفانتان) LE,PERE,ENFATIN مذهب (السان سيمونيه) مع أنصاره الذين استهوتهم مصر بماضيها العريق، وصلت مجموعة منهم عددها ٥٠ رجلا من المهندسين والفنانين والكتاب على رأسهم (انفانتان) إلى مصر عام ١٨٣٣، كان بينهم الموسيقى (فيليسيان) والنحات (الريك)، والفنان (فيليب جوزيف ماشيرو).

توفى (الريك) فى مصر ،وعاد (فيليسيان) إلى فرنسا، وآثر ماشيرو البقاء فى مصر، كان شخصية فريدة، وصل الاسكندرية فى سن الثانية والثلاثين ممتلئا حيوية... غزير الشعر، بوهيمى الطبع، خصب الخيال متعدد المواهب، رساما



الأزهر - لودفيج دويتش ١٨٩٠

مبدعا، موسيقيا بارعا، ممثلا موهوبا، وكاريكاتوريا لايبارى، أثارت دعوة (السيمونية) حماسته، ومالبث أن أصبح النديم الفكه، والطفل المدلل للجالية الفرنسية بالقاهرة، أحبه سليمان باشا وألحقه بالعمل فى صحبته فكان (ماشيرو) يرسم فى كل مكان فوق حوائط قصر سليمان باشا، أو فى الأماكن ذات الطراز العربى، يرسم لوحات الريف حول الأقصر مستلهما من كتاب (وصف مصر) ، ومما تقع عليه عينيه.

ولعل من أشهر الفنانين الإنجليز الذين تركوا كما كبيرا من الرسوم الجميلة الفنان دافيد روبرتس DA-VIDROBERTS الذى زار مصر عام ١٨٣٧ ووضع كتابه (الأراضى المقدسة ومصر والنوبة) ضمنه مجلدات ثلاثة فضلا عن مجلده عن القاهرة، اكتسبت العمارة الإسلامية والتى كانت شبه مجهولة فى الغرب بعداً جديدا بفضل رسومه لمساجد القاهرة، خاصة مسجد السلطان حسن، أما رسومه للآثار الفرعونية فقد تفردت برؤيته الخاصة، تكشف براعته فى التكوين ضخامة وعظمة المعابد المصرية نراها تهيم فى عالم الظل والضوء، وتبدو فلسفتها عميقة المعنى لصغر حجم العنصر البشرى وسط الأوابد الهائلة، تأمل فى ذلك لوحاته التى شاعت فى الأسواق منذ زمن بعيد .. معبد ادفو، أو معبد دندرة، أو أطلال معبدى الأقصر.

وبعد عدة سنوات من زيارة روبرتس كانت رحلة الفنان الإنجليزى (جون فردريك لويس JOHN, FREDERICK, LEWIS للقاهرة عام ١٨٤١ اهتمامه بالشرق كان يختلف عن اهتمام روبرتس ارتدى ثياب الاتراك، وعاش فى خيالات خاصة تخلقها غيوم (الشبك) وأبخرة المخدرات وسط أثاث وديكورات تركية، وقد تخصص فى رسوم طرقات القاهرة والحياة الخاصة ببراعة لونية وتقنية عالية، وعندما عاد إلى لندن فى عام ١٨٥١ كان حريصا على أصطحاب مخططات ، ونماذج أستشراقية أفادته فى إنتاج العديد



وجبة وسط اليوم فى القاهرة - جان فردريك لويس ١٨٧٥ م

من اللوحات التى درت عليه أرباحا كبيرة.

بين التأثيرية والواقعية

ومن الفنانين المستشرقين الفرنسيين أصحاب النفوذ والمكانة السياسية فى فرنسا الفنان (هوراس فرنيه) HOR-ACE,VERNET الذى زار مصر فى الأربعينات من القرن ١٩، وتخصص فى رسم الخيول، أما الفنان الفرنسى (نارسيس برشير) NAR-CISSE,BERCHERE الذى زار مصر عام ١٨٥٦ فقد كان أحد أقطاب مدرسة (الباربيزون) التى مهدت للمدرسة التأثيرية بما لها من مكانة كبيرة فى تاريخ الفن واقترب من طبيعة هذه المدرسة أيضا الفنان الفرنسى (ليون بيلى) LEON,BELLY . الذى اشتهر بلوحته (حجاج فى طريقهم إلى مكة) التى رسمها فى مصر عام ١٨٦١ . أعماله فى صحراء سيناء تبدو خالية من الأشخاص، جوها غريب ساحر تكشف فى تفرد حركات أرض جدباء فى القاهرة كتب لوالدته يقول: (لون وشكل الأرض لهما جمال خارق، ولايوجد مايعطيك فكرة عن روعة اللون، الارتباط مدهش بين السماء التى تبدو شبه بنفسجية، وبين الرمال الممتزجة بالأحمر الذهبى، وبين بحر تركوازى).

وكشفت البحوث أخيرا عن الفنان النمساوى، (لودفيج دويتش) LOD-VIG, DUISH درس الفن فى فرنسا، وتخصص فى رسم الموضوعات التاريخية، زار مصر عدة مرات عامى ١٨٨٦ و ١٨٩٠، تميزت أعماله بدقة متناهية ونصاعة مشرقة الألوان، يقترب من التفاصيل كأنه يراها تحت مجهر، ويبتعد عنها بتوازن فى التكوين كأنه يصورها بعين الكاميرا أثار الانتباه بهذه الدقة فى معرض باريس الدولى عام ١٩٠٠ وحصل على الميدالية الذهبية، عن لوحاته فى القاهرة (مقبرة السلطان)، و(رقصات نوبية)، (الصبية المحظية)، (الأزهر) و(حارس القصر)، وله لوحة كبيرة (٢٫٨٥×٢٫٩٥) تصور (موكب المحمل فى القاهرة). ■